الظاهرة الإجتماعية ونظامها المعرفي في القرآن الكريم

مقدمة :

الظاهرة الاجتماعية في هذا البحث تقابل، كموضوع دراسة، الظاهرة الطبيعية، ونقصد بها مجموع التجليات المجتمعية الناجمة عن التدافع البشرى في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم منها. ونقصد بالنظام المعرفي للظاهرة الاجتماعية ذلك النظام الذي يولد العلم الضروري لتفسير جميع تجلياتها الجزئية في الزمان والتنبؤ بمقتضى قوانينها الكلية بما تصير إليه أمور المجتمع عبر الزمان إذا تم التفاعل بين المتغيرات الكلية الحاكمة لها على وجه من الوجوه دون الآخر.

ويرى الباحث أنه لا يمكن تأسيس النظام المعرفي للظاهرة الاجتماعية إلا بعد تقديم رؤية كلية " Worldview " تبين طبيعة هذه الظاهرة الاجتماعية في مبتدئها ومنتهاها وما بينهما ، والدور الذي يلعبه " **العلم** " و " **نقيضه** " في تجلياتها المختلفة.

ذلك أن النظام المعرفي من منظور إسلامي ، كما يرى الباحث ، يُعْنى في جوهره بعملية كسب العلم من مصادره وتوظيفه والعمل به لتحقيق المقاصد الشخصية والمجتمعية ، باعتبار أن مفهوم المعرفة كما ورد في القرآن الكريم يعبر عن عملية إدراكية يتم فيها توظيف الإنسان لمعلومات سبق اكتسابها في التمييز المباشر والفوري بين المدركات الحسية التي تقابله.

يبدأ الباحث بالنظر في مفهومي العلم والمعرفة في القرآن والعلاقة بينهما ، ثم يتبع ذلك تلخيص لما فصله الباحث في مكان آخر عن الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية.[1] يلي ذلك محاولة تجريدية أولية لتأسيس ما يرى الباحث أنه النظام المعرفي للظاهرة الاجتماعية على قواعد هذه الرؤية القرآنية " Worldview " ، وتبيان كيف يتولد العلم التوحيدي من هذا النظام المعرفي.

ينتهي البحث باستخدام الإطار النظري السابق في الإجابة على بعض الأسئلة المثارة عن النظام المعرفي في الإسلام.

العلم والمعرفة في القرآن الكريم :

ميز القرآن بين العلم والمعرفة تمييزاً نبني عليه تعريفنا لهما والفروق بينهما. تبدو المعرفة في القرآن كأنها عملية فطرية " Innate Process " يمارسها جميع الناس للتمييز بين المثيرات الخارجية التي تباشر الحواس ، وهذا التمييز يترتب عليه رد فعل هو عمل قد يكون نفسياً وقد يكون جسدياً. لذلك فإن جميع الآيات التي ذكرت أن عملية التعرف قد تمت ذكرت رد الفعل الذي تلا تلك العملية : { **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** } [البقرة : 89] ، { **ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** } [المائدة : 83] { **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها** } [النحل : 83] ، { **فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون** } [يوسف : 58] ، ثم ذكر في سورة يوسف بعد هذه الآية ما ترتب على معرفته لاخوته من تدبيره لأخذ أخيه في دين الملك. وفى [الأعراف : 46] : { **يعرفون كلا بسيماهم** } رتب عليها دعوتهم ألا يجعلهم الله تعالى مع القوم الظالمين.

يتميز العلم في القرآن بأنه جوهر مستقل يتوخاه الإنسان للوصول إلى الحق القريب " **الظاهر** " أو البعيد " **الباطن** " في شيء أو قضية ما. وبقدر ما أثبت القرآن المعرفة لجميع الناس فقد قصر العلم على خاصتهم ، كما ثبت في كثير من الآيات التي تنتهي بأن أكثر الناس لا يعلمون. وحتى عندما أثبت لكل الناس علماً قصره على علمهم بظاهر الحياة الدنيا وهو علم محدود جداً يتعلق بسنن التشيؤ التي تكتشف بالتجربة والخبرة البشرية قياساً إلى ذلك العلم المطلوب من الإنسان والمتاح له عندما يجمع بين قراءتي الوحي والكون ويمتد بفؤاده عبر عالم الشهادة إلى عالم الغيب : { **وعد الله لا يخلف الله وعده**

---

[1] أنظر في هذا الخصوص د. محمد الحسن بريمة (1998م).

ولكن أكثر الناس لا يعلمون ! يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون } [الروم : 67] ، { **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ! ذلك مبلغهم من العلم** } [النجم : 29 - 30].

إذن ، مما سبق ، يمكننا أن نقول إن المعرفة هي : " **عملية توظيف ذهني لما تراكم في الذاكرة من معلومات حسية عن عالم الشهادة للتمييز الفوري بين المثيرات الخارجية التي نتصل بها في حياتنا العملية ، ولتحديد ردود أفعالنا تجاهها. كل ذلك من خلال المقارنة فالمطابقة بين وارد الحس من معلومات عن المثير الخارجي ووارد الذاكرة الفوري من مخزون المعلومات عن ذلك المثير ، وما يتبع ذلك من تداعى بقية المعلومات التي نمتلكها عن ذلك المثير مما يعمق معرفتنا به** "[1].

أما العلم فيمكن القول إنه المعلومة المطابقة للحق المتوخى في المعلوم لدى المتوخى. هنا إذن ثلاث قضايا تتعلق بالعلم هي :

(1) حق متوخى.

(2) معلومة يجزم بأنها مطابقة للحق المتوخى.

(3) دليل قاطع بصدق الجزم.

ما هو الفرق بين العلم والمعرفة إذن ، وما هي نوع العلاقة التي تجمع بينهما في هذه النظرية القرآنية ؟.

الفرق الأول : الذي يبدو لنا هو أن المعرفة عملية " Process " ذاتية " Subjective" لا تنفك عن الشخص الذي يمارسها ، بينما العلم جوهر مستقل " Objective" عن ذات الإنسان.

الفرق الثاني : الذي يبدو لنا هو أن عملية الكشف العلمي عملية إبداعية تؤدى إلى إيجاد معلومات يقينية جديدة تضاف إلى رصيدنا العلمي عن شئ كان مجهولاً من قبل أو كان بعضه معلوماً وبعضه مجهولاً ، بينما المعرفة هي عملية استرجاع لمعلومات قديمة في الذاكرة عن شئ كان معروفاً لنا سلفاً ومطابقتها بالمعلومات الفورية الواردة إلى حواسنا من ذلك الشيء عندما تتصل به هذه الحواس.

الفرق الثالث : هو أن الهدف الرئيسي للعلم هو الوصول إلى العلل والأسباب التي تحكم الظواهر ، بينما هدف المعرفة هو التمييز بين الظواهر.

الفرق الرابع : هو سمة التلقائية التي تمارس بها العملية المعرفية بينما عملية الكشف العلمي تقوم على الأناة والتثبت المنهجي.

الفرق الخامس: هو أن المعرفة لما كانت عملية ذاتية تعتمد على مطابقة فورية بين معلومات الذاكرة ومعلومات الحواس فإنه يمكن فيها الإنكار المتعمد دون الخوف من كشف الآخرين للحقيقة : { **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** } [النحل : 83]. أما العلم فلأنه جوهر فإنه بعد الوصول إلى الحقيقة العلمية وإشهارها لا يمكن إنكارها وذلك لإمكان إثباتها بسهولة وبصورة مستقلة من قبل الآخرين. لذلك كان ضد العلم الجهل ، وضد المعرفة الإنكار ، حقيقة كان أم غير ذلك.

الفرق السادس: هو أن المعرفة لما كانت استجابة إدراكية لمثير خارجي باشر الحواس فإنه لا بد فيها من رد فعل مهما كان ضئيلاً أو غير محسوس " **قلبي** ". أما العلم فلأنه جوهر يتعلق بحقائق الأشياء فيمكن تدوينه ومن ثم تعلمه بالوسائل السمعية والبصرية دون مباشرة المتعلم نفسه لإنتاج العلم ، وبصورة ذهنية مجردة عن الانفعال ورد الفعل المصاحب للعملية المعرفية والناجم من أنه لابد من أن يباشرها الشخص بنفسه.

العلاقة الأساسية بين العلم والمعرفة والتي تكشفت لنا من تحليلنا السابق هي أن العلم يمكن بل ينبغي أن يرفد العملية المعرفية بالمعلومات الصحيحة التي سوف تختزن في الذاكرة عن المثيرات الخارجية ، وهى العنصر الأساس في العملية المعرفية

---

[1] د. محمد الحسن بريمة (1995م) : المعرفة بين النموذج الإسلامي والنموذج العلماني : دراسة نقدية مقارنة ، سلسلة رسائل التأصيل رقم (2) ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي (إدارة تأصيل المعرفة) ، الخرطوم ، السودان.

كما ذكرنا. فكلما كانت هذه المعلومات علمية كلما كانت معرفة الإنسان بمحيطه الخارجي صحيحة ومبنية على العلم ، ومن ثم تكون ردود أفعاله سليمة وحكيمة. وكلما كانت هذه المعلومات وهمية كلما كانت معرفة الإنسان خاطئة ومبنية على الجهل ، ومن ثم تكون ردود أفعاله غير موفقة. إذن المعرفة هي العلم والعمل معاً في نظرية القرآن المعرفية ، وفي اعتقادي أن هذه نتيجة جوهرية بحيث لا نتكلم عن المعرفة إلا ونتكلم عن العلم وما يترتب عليه من عمل.

المطلوب إذن في نظرية المعرفة القرآنية أن تكون حقائق العلم هي أساس المعرفة البشرية لا مجرد الظنون : { **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا** } [يونس : 36] ، ولكن النظرية تبين أيضاً أن غالب معرفة البشر ، لا سيما فيما وراء الظاهر ، تقوم على الوهم والتخمين. كذلك يتبين لنا أن نظرية المعرفة التي نحن بصددها تتكون من شقين ، الشق الأول يتعلق بإنتاج العلم ، والشق الثاني يتعلق بتوظيف العلم المنتج لتسيير حياتنا العملية ، وما يترتب على هذا من تفاعل بين الوحي والواقع الاجتماعي مما يؤدى إلى نمو العلم الإسلامي التجريبي في المجالين الطبيعي والاجتماعي كما سنري. ولكن عملية التوظيف تقتضي وجود المقاصد الحياتية ، والمقاصد تقتضي وجود الدوافع النفسية الحافزة للعمل ، والمقاصد والدوافع يقتضيان وجود مرجعية قيمية وأخلاقية حاكمة.

لما كان كسب العلم والعمل به " **المعرفة** " ، سواء كان أصل العلم القرآن أو التجربة الكونية ، جهداً بشرياً فهو يعتبر أحد تجليات الظاهرة الاجتماعية بحيث لا يمكن التأسيس النظري له إلا من خلال الفهم الكلى للظاهرة الاجتماعية "Worldview" التي يتولد عنها هذا الكسب والعمل. لذلك فإن مدخلنا المنهجي إلى النظام المعرفي في القرآن هو الرؤية القرآنية الكلية للظاهرة الاجتماعية في مبتدئها ومنتهاها وما بينهما وفى تفاعلها مع بيئتها الكونية المحيطة بها ، بحيث يبرز لنا الدور الجوهري الذي يلعبه العلم ونقيضه " **الجـهل** " في وجود هذه الظاهرة. بعدها نتتبع منشأ كل من العلم ومتعلقه " **العقل** " والجهل ومتعلقه " **الهوى** " وتفاعلهما مع المتغيرات التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية ، إذ أن هذه الظاهرة كما سوف يتضح لنا لا سبيل إلى فهم تجلياتها إلا من خلال متغيري العلم والجهل في تفاعلهما مع بقية المتغيرات الحاكمة لها.

رؤية قرآنية للظاهرة الاجتماعية

(أ) المدخل المنهجي :

ما نرى أنها الرؤية القرآنية الكلية للظاهرة الاجتماعية " Worldview " إن هي إلا قواعد معرفية تمكن من ترتيب وتفسير جزئيات هذه الظاهرة في إطار كلى مترابط ، ومن ثم تعطى معنى للتجربة الإنسانية في شتى صورها التاريخية ، فردية أو جمعية. لقد اصطلحت في جميع أبحاثي المتعلقة بهذا الموضوع على تسمية هذه الرؤية الكلية للظاهرة الاجتماعية في القرآن بـ " **خطة الخلق العامة** ". إن مدخلنا المنهجي لاستنباط هذه الرؤية للظاهرة الاجتماعية من القرآن الكريم يمكن الإفصاح عنه من خلال إثارة القضايا الآتية :

(1) نزل القرآن منجماً " **متفرقاً** " ، آيات وسوراً ، على الظاهرة الاجتماعية في تجلياتها المختلفة عبر مكان هو الجزيرة العربية ، وعبر زمان جاوز العشرين عاماً ، حتى إذا توحدت متفرقات هذه الظاهرة في إطار دين التوحيد كمل الدين وأعيد ترتيب ما نزل متفرقاً من آيات القرآن ترتيباً توقيفياً فتوحدت جميعها في إطار كتاب هو القرآن الكريم. وقد أثبت العلماء لهذا الكتاب خصائص أساسية منها وحدته البنائية ووحدته الموضوعية ، وكذلك عالميته وخلوده عبر الزمان ، ومن ثم استيعابه وتجاوزه لما سبقه من شرعة ومنهاج الرسل السابقين.[1]

---

[1] طه جابر العلواني (1995م) : محاضرات في المنهجية الإسلامية ، إمام ، واد مدني ، السودان.

القضية المنهجية التي نرتبها على ما سبق هي أن ما ثبت من خصائص معرفية جوهرية للقرآن الكريم لا بد أن يكون لها ما يعادلها من خصائص كونية في الظاهرة الاجتماعية التي تنزل عليها متفرقاً لتفرقها حتى إذا توحدت إيماناً توحد القرآن كتاباً ، فهو بهذا المعنى معادل لها معرفياً ويشمل ذلك تفاعلها مع محيطها الكوني في عالمي الغيب والشهادة. وسوف نرى أن الوحدة البنائية للقرآن تبرز لنا وحدة بنائية في الظاهرة الاجتماعية حيث لها متغيرات كونية محددة هي أصولها التي تتفرع عنها وتتسق حولها جزئيات الظاهرة. وسوف يتضح لنا أن هذه المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية هي نفسها التي بنيت عليها المقاصد الكلية للشريعة ، وأن التفاعلات الكلية بين هذه المتغيرات تقابلها تماماً التقسيمات الكلية لأحكام الشريعة الإسلامية المعهودة. كذلك يتضح أن عالمية القرآن وخلوده تستمد شرعيتها العملية من عالمية هذه المتغيرات الحاكمة للظاهرة الاجتماعية من حيث أنها هي المسئولة عن هذه الظاهرة أينما وجدت عبر التاريخ والجغرافيا ، وأن القرآن الكريم بنى حولها في تفاعلها فيما بينها وفيما بينها وبين محيطها الكوني في عالمي الغيب والشهادة. لهذا كان القرآن كافة للناس بشيراً ونذيراً وأنه يهدى للتي هي أقوم. ويمكن فهم ذلك من خلال النظر إلى الظاهرة الاجتماعية باعتبارها جزءاً من كتاب الله المنظور" **الكون** " والقرآن الذي يعادلها معرفياً جزءاً من كتاب الله المسطور " **أم الكتاب** " ، بل علينا أن نتذكر أن الظاهرة الاجتماعية قبل أن تكون كتاباً منظوراً كانت في " **أم الكتاب** " كتاباً مسطوراً ، لقوله تعالى : { **والله خلقكم وما تعملون** } [الصافات : 96] ، { **قل الله خالق كل شئ** } [الرعد : 16] وقبل الخلق جرى القلم بعلم الله في " **أم الكتاب** " بما هو كائن إلى يوم القيامة : { **ما فرطنا في الكتاب من شئ** } [الأنعام : 38] ، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

كذلك فإن تنزل القرآن تاريخياً على الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة في الزمكان مع خلوده وعالميته يعنى بالضرورة أن تلك الظاهرة الاجتماعية العربية المخصوصة تقوم على متغيرات أساسية تشترك فيها مع أي ظاهرة اجتماعية في أي زمان ومكان ، ومن ثم يتنزل عليها القرآن بمقتضى خواص الخلود والعالمية والاستيعاب. ومن البديهي أن يبحث عن هذه المقومات الأساسية المشتركة للظاهرة الاجتماعية في القرآن الذي تنزل عليها.

(2) قوله تعالى : { **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء..** } [النساء : 1] ، يفيد أن الظاهرة الاجتماعية في كلياتها وجزئياتها اللا متناهية إنما انبثقت في مبتدئها من تفاعل زوج واحد " **ذكر ، أنثى** " ، إذ أن كلمة بثّ تعنى الانتشار المجتمعي وليس مجرد التناكح والتناسل. لا بد إذن من أن تكون الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية قادرة على أن تفسر كيف تم هذا البث ومن تفاعل زوج واحد ، والسنن الضامنة لهذا البث في تجلياته المختلفة عبر الزمان والمكان.

(3) لقد أكد علماء الشريعة بما يشبه الإجماع أن الشريعةالإسلامية تدور أحكامها جميعاً حول حفظ الضرورات الخمس " **الدين ، النفس ، العقل ، النسل ، المال** ". إن المعلوم من الدين بالضرورة أن الشريعة الإسلامية تحيط بالظاهرة الاجتماعية في جميع جزئياتها وتجلياتها في كل زمان ومكان توحيداً لشعاب الحياة المتجددة أبداً في دين التوحيد { **يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان** } [البقرة : 208]. نستنتج من ذلك أن ضبط الأحكام الشرعية لجزئيات الظاهرة الاجتماعية إنما القصد منه ضبط الكليات الخمس في إطار التوحيد ، وأن أي انفلات لهذه الجزئيات يرجع إلى انفلات من نوع ما لهذه الكليات عن مسارها التوحيدي. إذن انضباط جزئيات الظاهرة الاجتماعية أو انفلاتها عن التوحيد يرجع من حيث العلة الظاهرة إلى انضباط أو انفلات هذه الكليات الخمس عن منهج الله..

سوف يتبين من خلال بسطنا لنظرية الظاهرة الاجتماعية في القرآن الكريم أن ما اتفق عليه علماء الشريعة من كليات خمس عليها مدار الشريعة ، مع إبدال منهجي لـ " **الدين** " بـ " **الإيمان** " و " **العقل** " بـ " **العلم التوحيدي** " ، إنما هي في حقيقة الأمر المتغيرات الضرورية التي تتفاعل فيما بينها لإنتاج الظاهرة الاجتماعية التوحيدية عبر الزمان والمكان ، أي التي تدخل جميع جزئياتها في السلم، وهذا هو مراد الشارع من وضع الشريعة.

فإذا أضفنا إلى هذه المتغيرات الخمسة متغيري " **متاع الحياة الدنيا** " و " **الهوى** " أمكن تفسير الظاهرة الاجتماعية في جميع تجلياتها ، أي في حالة دخولها في السلم كافة " **التوحيد** " وفى حالة خروجها من السلم كافة " **الكفر** " ، وما بينهما " **الشرك** " ، وأن الضبط الاجتماعي في الإسلام ينبغي أن يقوم على التحكم في التفاعل بين هذه المتغيرات الكلية.

(4) قوله تعالى:{ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** } [الروم:30]، يدل على أن الدين الحق بحقيقته التي توحّد باطن الإنسان وشريعته التي توحد ظاهر حياته معادل للفطرة " **الخِلقة** " البشرية التي فطر " **خلق** " الله تعالى الناس عليها ، في أصولها الكلية وتجلياتها التفصيلية.[1] فما هي هذه الأصول الكلية للفطرة البشرية كما جاءت في القرآن وما هي تجلياتها التفصيلية بحيث يمثل مجموع

---

[1] من أجل الإلمام بمفهوم الفطرة في التراث الإسلامي واختلاف العلماء حوله ننقل هنا ملخصا موجزاً لذلك من كتاب " نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور " لمؤلفه إسماعيل الحسني ومن إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ، ط 1 ، 1995م ، حيث يورد في صفحة 263 ما نصه :

" تدل الفطرة في أصل الاستعمال اللغوي على الهيئة الخلقية الأولى التي خلق الله عليها النوع الإنساني. ففطر الله الخلق يفطرهم أي يخلقهم ، وفاطر السماوات والأرض ، الخالق الأول الذي خلقهما. ولكن العلماء اختلفوا في تحديد طبيعة الفطرة الإنسانية الأولي الواردة في لسان الشرع. يمكن رد آراء العلماء في تحديدها إلى ما يأتي :

(1) رأي ابن خلدون : يري ابن خلدون أن الفطرة الإنسانية قابلة في أصل جبلتها إلى الخير والشر ، لكنها إلى خلال الخير أقرب قال : " لما كان الملك طبيعياً للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع وكان الإنسان إلى خلال الخير أقرب من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة ، لأن الشر إنما جاء من قبل القوى الحيوانية فيه ، وأما من حيث هو فهو إلى الخير وخلاله أقرب.

(2) رأى أبي هريرة وابن شهاب وغيرهما : رأى هذا الفريق أن المقصود بالفطرة في الكتاب والسنة هو الإسلام لقوله تعالى : { فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون } [الروم : 30]. قال الزمخشري : " الفطرة الخلقة والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له ، لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ".

(3) الفطرة هي البداءة ، ومعنى ذلك عند هذا الفريق أن الشارع ابتدأهم للحياة والموت ، والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه بعد البلوغ ، واحتجوا بما روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتى إعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها.

(4) فطرة المؤمنين : ترى هذه الطائفة من العلماء أن المقصود بالفطرة الواردة في لسان الشرع هي الناس المؤمنين ، إذ لو فطر الكل على الإسلام لما كفر أحد ، وقد ثبت أن الشارع خلق أقواماً للنار ، قال تعالى : { ولقد ذرأنا لجهنم } [الأعراف : 179].

(5) رأى أبي اسحق بن راهويه الحنظلي : المراد بالفطرة عنده ، أن الشارع خلق الخلق إما للجنة وإما للنار ، ويعني ذلك أن الفطرة عنده هي سابقة السعادة والشقاوة لقوله تعالى : { لا تبديل لخلق الله } [الروم : 30].

(6) رأى ابن عطية وغيره : رأى هذا الفريق من العلماء أن المراد بالفطرة هو قابلية الخلقة الإنسانية للشر والخير ، لـ ـان والكفر. فالمولود لا يخلق في الغالب على إيمان و لا على كفر ، لا على إنكار ولا على معرفة ، ولكن إذا حصل لهم التمييز بعد البلوغ يعتقدون الكفر كما يعتقدون الإيمان ... لقوله ε : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ". قال ابن عطية : "والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل ، التي هي معدة ومهيئة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به" ، أ هـ .

كل ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها مصداقاً لقوله تعالى : { **والله خلقكم وما تعملون** } [الصافات : 96] ؟ ثم كيف يكون دين التوحيد الحق معادلاً في حقيقته وشريعته لهذه الفطرة البشرية ؟

بالنظر الفاحص في القرآن الكريم يمكننا استنباط الأصول الكلية الآتية للفطرة البشرية :

أولاً : ثنائية الخلق من الجسد الطيني والروح المغايرة للطين كما في قوله تعالى : { **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ! فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** } [الحجر : 27-29].

ثانياً : ثنائية في خصائص النفس البشرية من حيث إلهامها فجورها وتقواها : { **ونفس وما سواها ! فألهمها فجورها وتقواها ! قد أفلح من زكاها ! وقد خاب من دساها** } [الشمس : 6-10]. فخصائص الفجور تمثلت في صفات فطرية كقوله تعالى : { **وأحضرت الأنفس الشح** } [النساء : 128] ، { **إن الإنسان خلق هلوعاً** } [المعارج: 19] ، { **وخلق الإنسان ضعيفاً** } [النساء : 28] ، { **خلق الإنسان من عجل**} [الأنبياء : 37]...الخ. أما صفات التقوى فهي تكتسب بالمجاهدة والتزكية مثل صفات الصبر ، العدل ، الإحسان ، الصدق ، الأمانة ، السخاء ...الخ.

ثالثاً : ومن أصول الفطرة الموجودة في الإنسان بالقوة القدرة على كسب العلم وترتكز هذه القدرة على السمع والبصر والفؤاد كما في قوله تعالى : { **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** } [النحل : 78] ، وكذلك القدرة على كسب الجهل وترتكز هذه القدرة على سيادة الهوى في النفس كما في قوله تعالى : { **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** } [النجم :23].

رابعاً : زين للناس حب اللذات والأفراح وكراهية الآلام والأحزان ، ولذلك فلا يرى الإنسان الفطري إلا وهو مجتهد في جلب مصالحه ودرء المفاسد عن نفسه ، سواء في ذلك من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة. ولقد قضى الله تعالى في أصل الفطرة البشرية ألا طمأنينة ولا سعادة للإنسان إلا بذكره وإتباع منهجه فقال : { **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً** } [طه : 124] ، فعلمنا بذلك أن تعظيم ملذات الدنيا وأفراحها مع الإعراض عن منهج الله لا يجلب للإنسان سعادة حقة ولا أمناً ولا طمأنينة ، ومن ثم فلا حياة طيبة إلا باستقامة الفطرة على الصراط المستقيم ، ولا تبديل لخلق الله.

خامساً : أودع الله تعالى في أصـل الفطرة البشرية النزعة إلى الحرية والاستقلال فقال : { **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** } [الكهف : 29] ، وقال : { **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** } [النحل : 4].

سادساً : جعل الله تعالى في أصل الفطرة افتقار الإنسان إلى خالقه وعبوديته له اضطرارا مهما أعرض ونأى بجانبه كما في قوله تعالى : { **ضل من تدعون إلا إياه** } [الإسراء: 67] ، { **إليه تجأرون** } [النحل : 53]. كذلك قوله تعالى : { **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** } [الأعراف : 127]. لذلك يظل الإنسان شديد الارتباط بعالم الغيب أيا كان نوع هذا الارتباط ، وتظل حياته في عالم الشهادة شاهداً على هذه العلاقة.

الظاهرة الاجتماعية بجميع مظاهرها في الزمان والمكان إنما هي التجليات التفصيلية لتفاعل كليات الفطرة البشرية المذكورة آنفاً مع كليات زينة الحياة الدنيا " **المال، البنون** " كما سوف نبين أدناه. وجماع هذا التفاعل بكلياته وتجلياته هو المقصود ، فيما نرى ، بفطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولذلك خلقهم ولا تبديل لخلق الله.

إذن قول الله تعالى أن الدين القيم هو هذه الفطرة التي فطر الناس عليها يعني ، في رأي الباحث ، أنه يعادلها معرفياً حيث يبين القرآن أصول الخلق في عالم الغيب والحكمة منه ، ويفسر " **خطة الخلق العامة** " [1] في عالم الشهادة وتجلياتها عبر

---

(1) راجع أبحاثنا الموسعة عن " خطة الخلق العامة " لاسيما المرجع الآتي : " رؤية قرآنية للظاهرة الاجتماعية وتجلياتها الاقتصادية " من إصدارات المركز العالمي لأبحاث الإيمان (الخرطوم ، 1999) ، وكذلك أنظر ما أوجزناه حول هذا الموضوع في الصفحات التالية من هذا البحث. يمكن أيضاً الرجوع إلى البحث الموسع حول الموضوع باللغة الإنجليزية كما في المرجعين الإنجليزيين (1) و (2).

التاريخ ، ثم يبين مآلاتها وتأويلها مرة أخرى رجعي إلى عالم الغيب. وبناء على ذلك يضع الوحي الكريم أصول العلم الذي يستبين به صراط الله المستقيم المبني على أصول التقوى في النفس اعتقاداً وعلى أصول زينة الحياة الدنيا عملاً صالحاً ، ولتستبين به كذلك سبيل المجرمين المبنية على أصول الفجور في النفس اعتقاداً وعلى أصول زينة الحياة الدنيا سعياً في الأرض فسادا : { **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** } [الأنعام : 151]، { **وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين** } [الأنعام : 55]. كل ذلك حتى يحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة وما ربك بظلام للعبيد.

سابعا **:** نخلص مما سبق إلى أن الأصول المعرفية للظاهرة الاجتماعية ينبغي أن تستقي من الوحي الكريم " **ابستمولوجيا الظاهرة الاجتماعية** " ، كما أن السنن الاجتماعية الناجمة عن تفاعل الفطرة البشرية مع زينة الحياة الدنيا والمكتشفة والمؤكدة بواسطة البحث العلمي الموضوعي " **أنطلوجيا الظاهرة الاجتماعية** " لا يمكن أن تتعارض مع أحكام الوحي المتعلقة بها ، بل تؤدي إلى ثراء في الفهم البشري لحكمة التشريع الإسلامي وعلله ومقاصده. هذا يعني أيضاً أن السنن الاجتماعية ، كما السنن الطبيعية ، هي محدد منهجي في فهمنا للوحي ومراميه.

(ب) خطة الخلق العامة :

إن القرآن الكريم يخبرنا أن الله تعالى خلق الإنسان لعبادته : { **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** } [الذاريات : 56]. ولكن الله تعالى يخبرنا أيضاً أنه إنما خلق الإنسان ليبتليه بطلب العمل الصالح منه : { **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** } [الملك : 2] ، وأنه تعالى أيضاً خلق الإنسان مختاراً ذا إرادة ليؤمر بالشكر تكليفاً: { **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** } [الإنسان : 3] ، { **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم** } [الزمر : 7].

إن الضابط المنهجي الذي يربط بين هذه الآيات هو أن عبادة الله تعالى أصلها العمل الصالح الذي ثمرته الشكر. ولكن ما هو ميدان العمل الصالح ؟ وما هي طبيعة هذا الابتلاء الذي قد يؤدى إلى الشكر وقد يؤدى إلى الكفر؟ وما علاقة كل هذا بقضيتنا المعرفية ؟ إن الإجابة على جميع هذه الأسئلة نجدها في ثنايا " **خطة الخلق العامة** " التي بمقتضاها خلق الله تعالى السماوات والأرض وخلق الإنسان ليكون محور هذه الخطة المحكمة.

إن القرآن الكريم يخبرنا أن هذا الابتلاء إنما ابتداؤه ومجاله الأول هو " **زينة الحياة الدنيا** " : { **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** } [الكهف : 7]. ويفصل القرآن الكريم أن هذه الزينة تتمثل في " **المال** " و " **البنون** " : { **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** } [الكهف : 46]. ولكن ماذا أودع الله في الإنسان ليجعله قابلاً للابتلاء في المال والبنين ؟ يخبرنا القرآن الكريم أن الإجابة إنما تكمن في طبيعة النفس البشرية التي ألهمها الله تعالى دوافع الفجور " **الشح ، البخل ، الكبر ، الحسد ، العجلة ، الطمع.. الخ** "ودوافع التقوى " **الصدق ، التواضع ، السخاء ، الصبر ، الرحمة ، العدل ، الإحسان..الخ** " : { **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** } [الشمس : 7].

إذن لدينا ثلاثة متغيرات ينبغي أن تتفاعل ليتم الابتلاء ، ألا وهى : النفس ، المال ، البنون. إذن ما هي علاقة " **النفس** " بعنصري " **المال** " و " **البنون** " ؟ يخبرنا الله تعالى أنه أودع في المال والبنين شهوات ولذة حببها إلى النفس وزينها لها : { **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا** } [آل عمران : 14]. كذلك نلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد فصلت عنصر " **البنين** " إلى " **النساء** " إشارة إلى علاقة الرجل بالمرأة وما يكتنفها من ابتلاء الجنس ابتداءً وغيره من الابتلاءات التي تترتب على هذه العلاقة ، وإلى الأبناء من ذكور وإناث إشارة إلى ثمرة العلاقة بين الرجل والمرأة والابتلاء المستقل الذي يمكن أن يترتب عليه حبهم : " **الأبناء مجبنة مبخلة... [الحديث]** " ، أو بّرهم : { **فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما** } [الأعراف: 190]،

أو عقوقهم: { **وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا**} [الكهف : 8] ، { **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم** } [التغابن : 14].

وفصلت الآية عنصر " **المال** " إلى الثروة المعدنية ، الثروة الحيوانية ، الثروة الزراعية ، وما ينجم عن هذه المجالات من سلع اقتصادية بفعل القيمة المضافة تكون فتنة مستقلة للإنسان. وجماع ذلك كله قوله تعالى : { **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** } [التغابن:15].

المتتبع لهذه المفاهيم الثلاثة في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المضمون الذي يحتويه المفهوم ، وأحياناً ترد مفصلة هذا المضمون إلى عناصره الأساسية ، فمثلاً ورد مفهوم النفس بمعنى ذلك العنصر غير المادي الممتزج بجسد الإنسان : { **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** } [الزمر : 42] ، ولكنه أيضاً ورد بمعنى كل الإنسان : { وما **تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأي أرض تموت** } [لقمان : 34]. كذلك مفهوم البنين يرد أحياناً ليعبر عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: { **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** } [الكهف : 46] ، وهى علاقة " **رجل- امرأة -أبناء** " وأحياناً يرد بمعنى الأبناء ، ذكوراً وإناثاً ، مقابل الزوجة : { **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة** } [النحل : 72]. وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات : { **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** } [الصافات : 149]. ويرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة أنواعه وتجلياته .

إن طبيعة الابتلاء المترتب على تفاعلات هذه العناصر الثلاثة " **النفس ، المال ، البنون** " إنما يكمن في أن الله تعالى تعبد الإنسان بأن طلب منه شكر نعمته المتمثلة في زينة الحياة الدنيا ، وذلك بأن يعمل فيها صالحاً : { **إنا هديناه السبيلا إما شاكراً وإما كفوراً** } [الإنسان : 3] { **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** } [الزمر : 7] ، { **وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون** } [الأعراف : 7].

الشكر على النعمة إذن هو جوهر عبادة الله المطلوبة تكليفاً من البشر على الأرض. ولكن الشكر بهذا المعنى لكي يتحقق لا بد من أن يتحقق الناس بثلاثة أمور:

العلم **:** العلم أولاً بأسماء وصفات الله التي تجعله وحده منعماً ، ثم العلم بالنعمة وخصائصها التي يتحقق بها تمام المنفعة ، ثم العلم بالمنعم عليه " **الإنسان** " من حيث مقوماته التي تجعله منتفعاً بتلك النعمة وكيف ومتى يكون شاكراً ، وكيف ومتى يكون كافراً.

هكذا يتولد العلم كضرورة تحتمها الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية ، وسوف نتابع كيف يتفاعل هذا العلم مع المتغيرات الأخرى ليتحقق الشكر لله تعالى.

الإيمان **:** العلم الضروري أعلاه يترتب عليه إيمان بوجود الله تعالى محصلته حال قلبي من الطمأنينة والأمن والسعادة وإخبات إلى الله تعالى ونية صادقة وعزم قوى على العمل بمقتضى العلم.

العمل الصالح **:** وهو الإقبال على زينة الحياة الدنيا بمقتضى أمر ونهى الشارع ومن ثم استخدام النعمة في مقتضى الحكمة. هذا يقتضي من النفس الالتزام بقيم ودوافع التقوى ، وهذا معنى التزكية المؤدى إلى الفلاح في الدنيا والآخرة. وهو يقتضي نهى النفس عن الهوى وردها إلى حد الاعتدال في إقبالها على زينة الحياة الدنيا. ولكن النفس بما جبلت عليه من حب الشهوات المودعة في " **المال** " و " **البنين** " تريد أن تتجاوز الاعتدال إلى الاعتداء ، وبدلا عن سد الحاجة إلى إشباع الشهوة. كل ذلك يؤدى إلى إثارة دوافع الفجور في النفس اللازمة للتمرد على أمر الله ومعصيته في مجال " **المال** " و " **البنين** " ، وغيرهما من مجالات الحياة التي تنشأ من تفاعلات المتغيرات الأولية الثلاثة لخطة الخلق " **النفس ، المال ، البنون** " بمقتضى العلم التوحيدي أو بمقتضى الهوى ، وهذا معنى " **الدس** " المؤدى إلى الخيبة في الدنيا والآخرة.

ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء والذي يضمن دخول جميع البشر فيه ؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان ، ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها. فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد وهى الدوافع الحيوية ، وبعضها تختص به النفس وهى الدوافع النفسية. فالدوافع الحيوية كالجوع الناجم عن عدم الأكل ، والعطش الناجم عن عدم الشرب ، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع ، والعرى الناجم عن عدم الملبس والإضحاء الناجم عن عدم المسكن. هذه الدوافع الحيوية المرتبطة بعنصري المال والبنين لا بد من إشباعها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض ، وهى تضمن دخول جميع الناس في فتنة المال والبنين.
أما الدوافع النفسية فهي دوافع معنوية تتمثل في دوافع التقوى والفجور المذكورة آنفاً ، وهى الآليات اللازمة للابتلاء المركوز في زينة الحياة الدنيا ، إذ هي تنشط تلقائياً بمجرد أن تؤدى الدوافع الحيوية دورها في خلق التفاعل الأولي بين العناصر أو المتغيرات الثلاثة " **النفس ، المال ، البنون** ".

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة " **النفس ، المال ، البنون** " هي مفاهيم جامعة " Generic Concepts " والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة ، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود ولا تحتمل أدنى منها. فإذا تفاعلت هذه العناصر الثلاثة ، بمقتضى الضرورات الحيوية في الإنسان إبتداءً ، ترتب على هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة ، وهما :

(1) " **العلم بظاهر الحياة الدنيا** " ، وكان موجوداً من قبل بالقوة من حيث قابلية الإنسان للتعلم (**السمع ، البصر ، الفؤاد**) وإمكان العلم المركوز في " **المال**" و"**البنون**" (**سنن طبيعية وإجتماعية**) .

(2) " **الهوى**" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في النفس بعد أن تذوق اللذة المودعة في "**المال**" و "**البنون**" .

ولما كان "**العلم بظاهر الحياة الدنيا**" يتولد عن التفاعل بين العناصر الثلاثة الأولية الحاكمة للظاهرة الإجتماعية فإن دوره يظل وظيفياً بحتاً حتى يأتي "**علم الخبر**" (**الوحي**) من السماء فيتوحدا بمقتضى المنهجية التوحيدية ليكوّنا معاً "**العلم التوحيدي**" الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس. فالنفس إما أن تتفاعل بمقتضى العلم التوحيدي " **العقل** " وقيم التقوى مع المال والبنين فيتحقق الشكر لله تعالى، وإما أن تتفاعل بمقتضى الجهل " **الهوى** " وقيم الفجور مع المال والبنين ويتحقق بذلك كفر النعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسئول عن نشأة المجتمعات وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشرى ، بما في ذلك المؤسسات والنظم.
لقد اقتضت حكمة الله خلق أول زوج من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض ، وضرورة الجنس أدت إلى سكن الرجل إلى المرأة ، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تنظيم أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المال من المأكل والمشرب والملبس وما يقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح رهطاً وقبيلة حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية ، وكان العمران.
إذن الضرورات الحيوية تضمن لنا قيام المجتمع ، وتفاعل النفس بمقتضى العلم التوحيدي " **العقل** " أو الجهل " **الهوى** " مع المال والبنين يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي ألهمت فجورها وتقواها وزين لها حب الشهوات الدنيوية سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء ، ونعنى بها دوافع الفجور والتقوى. ونحسب أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو الطمع ، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا ، ومن ثم يصبح

الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا الحاجة. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه في أي وقت ومكان ، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا والاستئثار بأكبر نصيب منها. هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا ، فاحتاجوا إلى حاكم يسوس أمرهم ، وينظم علاقاتهم ويفض نزاعاتهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات تعينه على أداء مسئولياته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها ، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها وتعظيم حظوظه الدنيوية. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر البشرية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير من حيث العلة الظاهرة إلى العناصر الأولية لخطة الخلق هذه وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

وكم هائل من آيات القرآن الكريم تؤكد هذه النتيجة المنطقية نكتفي هنا بإيراد أمثلة منها. ربط الله تعالى بين القوة العسكرية والسياسية وبين متغيري المال والبنين فقال في حـق بنى إسرائيل : { **ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا** } [الإسراء : 6]. وقال ممتناً ومتوعدا من جعل ماله وولده علة لسلطانه ومبرراً لطغيانه : { **ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالاً ممدودا وبنين شهودا** } [المدثر : 12]. إن عدل السلطان وإحسانه رهين بورعه وزهده في زينة الحياة الدنيا (المال ، البنون) ، ولن يتم ذلك إلا بتمام العلم التوحيدي عقلاً وقيم التقوى خلقاً . وظلم السلطان وبغيه سببه طمعه وحرصه على زينة الحياة الدنيا (المال ، البنون) ، ويتحقق ذلك بتمام الجهل هوى ، وقيم الفجور خلقاً . وقديماً خشيت بلقيس ملكة سبأ من النوايا الحقيقية التي وراء بطش أهل السلطة فحذرت قومها من أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها "**نهبوا وخربوا أموالها** " ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة " **سبوا النساء واسترقوا الأبناء** ". وحاولت أن تجنب قومها ذلك المصير بتقديم رشوة من المال " **هدية** " إلى سيدنا سليمان عليه السلام ظناً منها أن ذلك هو الذي دفعه إلى التحرش بمملكتها. وقبل بلقيس شكا نبي الله نوح ، عليه السلام ، قومه إلى الله تعالى بأنهم عصوه { **واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** } [نوح : 21]. وأخيراً يأتي التحذير القرآني للناس عامة : { **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم** } [التغابن : 15] ، { **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات ، بل لا يشعرون** } [المؤمنون : 55] ، { **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى** } [سبأ : 37] ، وللمؤمنين خاصة : { **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** } [المنافقون : 9].

إن حقيقة الامتحان في " **خطة الخلق العامة** " تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل طبيعتها " **أفعل** " و " **لا تفعل** " ، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الإنسان لزينة الحياة الدنيا. وهذه الأوامر و النواهي تتعارض في الغالب مع هوى النفس في استخدامها لزينة الحياة الدنيا.

إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله ثمناً للانتفاع بها : { **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** } [إبراهيم : 7] ، { **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** } [النساء:147]. ولكن الدوافع السالبة التي أودعها الله في النفس والتي تتعلق بها قيم الفجور " **الكبر ، الشح ، البخل ، الطمع...إلخ** " هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس ، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي " **الحياة الدنيا** " و " **الدار الآخرة** " لتلخيص مداخل البشر إلي الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم ، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا : { بل **تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** } [الأعلى : 16-17] ، { **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** } [الأنعام: 32] ، { **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب** } [الشورى : 20].

إن مجال الامتحان واحد ، وإن مادته واحدة " **زينة الحياة الدنيا** " ولكن من قال: { **إن هي ألا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** } [الجاثية : 24] ، { **إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** } [الأنعام : 29] أو قال : { **ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** } [ص : 16] فقد بنى حياته على مقصد أساس، هو تعظيم متاع الحياة الدنيا : { **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً.. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** } [الحديد : 20].

أما من قال : { **ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** } [البقرة :20] فقد بنى حياته على مقصد أساس ، ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا طمعاً في تعظيم متاع الدار الآخرة : { **سابقوا إلي مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله** } [الحديد : 21] ، { **ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** } [المطففين : 26] ، { **أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون** } [المؤمنون : 61] ، { **وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ! يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار** } [غافر : 38-39] {وما **أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير و أبقى ، أفلا تعقلون ! أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين** } [القصص : 60-61].

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا ، وتبياناً لكل شيء حتى يحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم □ ، بدعاً من الرسل ، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلي أن يكون " **الإيمان** " بالله المقصد الكلى الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له والمتمثلة في المتغيرات التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية " **النفس ، المال ، البنون** " و " **العلم** " الذي تتفاعل بمقتضاه لينتج عن كل ذلك العمل الصالح المحقق للشكر. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ الإيمان والعمل الصالح : { **والعصر إن الإنسان لفي خسر ! إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ! وتواصوا بالحق ! وتواصوا بالصبر** } [العصر] وحفظ متعلقاتهما من " **النفس** " : { **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**} [الإسراء : 33] ، و " البنين" : { **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم. إن قتلهم كان خطئاً كبيرا ! ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا** } [الإسراء : 31-32] ، و" **المال** " : { **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلي الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** } [البقرة : 188] ، و " **العلم** " : { **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** } [الإسراء : 36].

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع لحفظ هذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلى بين المتغيرات التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى العلم التوحيدي أو الهوى. وإذا كانت مقاصد الشريعة جاءت منزلة على أصول " **خطة الخلق العامة** " فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية " **عبادات ، عادات ، معاملات ، جنايات** " جاءت متوافقة مع التفاعل الكلى لمتغيرات " **النفس ، المال ، البنون** " بمقتضى " **العلم التوحيدي** " وما يتعلق به من قيم التقوى ، أو بمقتضى " **الهوى** " وما يتعلق به من قيم الفجور. فكانت العبادات " **صلاة ، زكاة ، صوم ، حج** " آليات لتزكية النفس من " **الهوى** " الذي تتعلق به قيم ودوافع الفجور ، وتمكيناً " **للعلم** " الذي تتعلق به قيم ودوافع التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، والمنكح.. الخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات ، قصاصاً وتعزيراً ، حياة لأولى الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها " **الهوى** " فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها ، جناية في حق المعبود " **الله** " أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة " **لا إله إلا الله** " إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف ، اختياراً دون إكراه ، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف " **الله** " من قبل المستخلَف " **الإنسان** " فيما استخلف فيه " **زينة الحياة الدنيا** ".

نحو نظام معرفي قرآني للظاهرة الاجتماعية

هذه محاولة لاستنباط النظام المعرفي الذي تحتويه رؤيتنا القرآنية للظاهرة الاجتماعية ، وهى محاولة أولية نأمل أن تتميز بالقابلية للتطوير والتعميق في المستقبل. ورغم بضاعتي المزجاة في علوم المنطق إلا أنني سوف أحاول أن أعبر عن هذا النظام المعرفي من خلال لغة الرياضيات حتى تستبين العلاقات التفاعلية بين المتغيرات والطبيعة الديناميكية لهذا التفاعل ، ويستبين كذلك الدور الجوهري للعلم التوحيدي في النظام المعرفي القرآني.

نستطيع أن نعرف النظام المعرفي لأغراض هذا البحث بأنه شبكة مترابطة من المفاهيم الجامعة والمسلمات الكلية التي تم استنباطها من الرؤية الكلية "Worldview" والفرضيات النظرية ، ولها اتساق وانسجام فيما بينها ، وتدّعى التعبير الحقيقي عن ما يدور في الواقع الاجتماعي. هذا النظام ترتب في إطاره المشاهدات الحسية وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الإثارة والبحث ، ونوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة.

نرمز إلي متغير " **الإيمان** " -الإيمان يزيد وينقص- بالحرف (I) وإلى متغير " **متاع الحياة الدنيا** " بالحرف (U). أما متغير " **العمل الصالح** " فنشير إليه بالحرف (G). نعرف العمل الصالح بأنه ذلك الذي يترتب عليه ثواب من الله تعالى. أما العمل الفاسد (B) فهو ذلك العمل الذي يؤثم صاحبه أو لا يؤجر عليه من الله تعالى. أما مطلق العمل (X) فهو الذي يحتمل أن يكون صالحاً أو فاسداً بناءً على عمل متغيرات أخرى. " **النفس** " (S) دالة في " **العلم التوحيدي** " وفى " **الهوى** ". الهوى (H) نعنى به قوة تعلق النفس بمتاع الحياة الدنيا. أما " **العلم التوحيدي** " ($\overline{R}$) فنقصد به ذلك العلم المحقق للإيمان في النفس والعمل الصالح في زينة الحياة الدنيا، وهو الذي تتعلق به قيم ودوافع التقوى. أما إذا اقتصر العلم على ظاهر الحياة الدنيا دون النفاذ إلي العاقبة في المعاد ، فإن القرآن يقول إن هذا الشخص " **لا يعلم** " بل " **يجهل** " ، وتتعلق بهذا الجهل قيم ودوافع الفجور.

نشير إلي متغير " **المال** " بالحرف (W) وإلى متغير " **البنين** " بالحرف (C). كذلك نشير إلي مجمل المصالح الدنيوية والأخروية بالحرف (Q) . وأخيراً نستخدم الحرف (t) لمتغير الزمن.

إذن لدينا المتغيرات الآتية :

I = متاع الإيمان

U = متاع الحياة الدنيا

Q = جملة المصالح

G = العمل الصالح

B = العمل الفاسد

X = مطلق العمل

S = النفس بفجورها وتقواها

H = الهوى

$\overline{R}$ = العلم التوحيدي

W = المال

C = البنون

$t = 0,1,\ldots n$ = الزمن

ننشئ الآن الدوال المعبرة عن النظام المعرفي ثم نعلق عليه تعليقا موجزاً ننتقل بعده لنختبر دلالته على إجابة بعض الأسئلة المطروحة عن النظام المعرفي في الإسلام.

(1) $Q_0 = F(X_0)$ دالة جملة المصالح.

(2) $I_0 = F(G_0)$ الدالة التوحيدية " **متاع الإيمان** ".

(3) $U_0 = F(B_0)$ دالة متاع الحياة الدنيا.

(4) $G_0 = F\left[S_0(\bar{R}_0), W_0(\bar{R}_0), C_0(\bar{R}_0), \bar{R}_0\right]$ دالة العمل الصالح.

(5) $B_0 = F\left[S_0(H_0), W_0(H_0), C_0(H_0), H_0\right]$ دالة العمل الفاسد.

(6) $X_0 = F\left[S_0(\bar{R}_0, H_0), W_0(\bar{R}_0, H_0), C_0(\bar{R}_0, H_0), \bar{R}_0, H_0\right]$ دالة مطلق العمل

(7) $F_H < 0, F_R > 0, S_0 = F(W_0, C_0, \bar{R}_0, H_0)$ دالة النفس.

النفس البشرية في (7) متنازعة بين التزكية من خلال زيادة العلم التوحيدي ($F_R>0$) والنفس من خلال زيادة الهوى ($F_H< 0$).

(8) $F_H > 0, F_{HH} > 0, F_R > 0, F_{RR} < 0, W_0 = A + F(S_0, C_0, \bar{R}_0, H_0)$ دالة المال.

الثابت (a) يعبر عن ذلك الجزء من المال اللازم للضروريات الحيوية. المشتقات (F_R , F_{RR}) يعبران عن أن ازدياد العلم الإسلامي لا سيما فقه المال ، لدى المسلم الراشد يؤدى إلي زيادة طلب حظوظه من متاع المال فيما وراء الضروريات إلي الحاجيات وربما التحسينيات ، ولكن هذه الزيادة من المتاع تتناقص باطراد حتى تتوقف نهائياً لكي لا يصبح مسرفاً ومبذراً. أما المشتقان (F_H , F_{HH}) فيعبران عن أن حظوظ الإنسان من متاع المال يزيد طلبها باطراد مع تمكن الهوى من النفس.

(9) $F_R > 0, F_{RR} < 0, C_0 = B + F(S_0, W_0, \bar{R}_0, H_0)$ دالة البنين.

$$F_H > 0, F_{HH} > 0, F_W > 0, F_{WW} > 0$$

ينطبق تحليلنا في (8) على مشتقات الدالة (9) مع الأخذ في الاعتبار أن متاع البنين "**النسل** " يتكون من جزءين الأول متاع الجنس بين الرجل والمرأة والثاني متاع الأولاد المتولد عن العلاقة الأولى. نلاحظ أيضاً أن متغير المال (W) دخل كمؤثر في زيادة الطلب على متاع البنين ، لا سيما متاع الجنس.

(10) $R_1 = F(S_0, C_0, W_0, H_0)$ دالة العلم التوحيدي

هذه الدالة تعبر عن العلم التوحيدي (R_1) في الفترة (t_1) و التي تلي الفترة (t_0)للتفاعل الأول حيث يتأثر العلم ($\bar{R}_0$)المستنبط من القرآن بفقه الواقع وفتنته ممثلاً في المال(W_0) والنفس (S_0) والنسل (C_0).

أما التأثير فيعتمد على الطريقة التي يتم بها تفاعل النفس (S_0) مع متغيري المال (w_0) والبنين (C_0) ، فإن تم هذا التفاعل بمقتضى العلم التوحيدي($\bar{R}_0$) في المرحلة الأولى فإن أثره سوف يكون إيجابياً (F_s , F_w , F_c) > 0. ذلك أن تزكى النفس وتحليها بقيم التقوى يفتح عليها مزيداً من العلم : { **واتقوا الله ويعلمكم الله** } [البقرة : 282] ، ثم إن الشكر المتحقق يزيد نعمة العلم : { **لئن شكرتم لأزيدنكم** } [إبراهيم : 70]. والتفسير العملي لهذا أن تفاعل المجتمع مع الأحكام الفقهية في المرحلة الأولى يؤدى إلي ظاهرة اجتماعية جديدة تؤدى دراستها إلي زيادة المحتوى التجريبي للمتغير $\bar{R}$ كما سنرى لاحقاً.

أما إن تم التفاعل بمقتضى الهوى والشهوات ، أي بنى على قواعد كفر النعمة فإن الأثر على العلم سوف يكون سالباً (F_s , F_w , F_c) <0 . ذلك أن مثل هذا التفاعل يسبب راناً على القلب ، قل أو كثر ، ومن ثم يضعف قدرة النفس على عقل العلم التوحيدي : { **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** } [المطففين : 14]. وهذا مصداق القانون المقابل لقانون الشكر : { **ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** } [إبراهيم : 7]. والتفسير العملي لهذا هو أن علم الظاهرة الاجتماعية القرآني علم تجريبي يزيد بزيادة العمل بمقتضاه وينقص بحسب ذلك.

(11) $H_1 = F(S_0, C_0, W_0, R_0)$ دالة الهوى

كما يتأثر العلم التوحيدي بتفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا كذلك يتأثر الهوى " **الباطل ، الجهل** " بابتلاءات الواقع ، فإن غلب التفاعل بمقتضى العلم على المتغيرات (S,W,C) فإن ذلك يضعف من قبضة الهوى على النفس : $(F_s, F_w, F_c) < 0$. ولكن الغالب من منطوق القرآن والواقع أنه كلما ازدادت حظوظ النفس من شهوات ومتاع الحياة الدنيا ، كلما ازداد أثر الهوى في النفس قوة ، أي كلما ازداد تعلق النفس بهذه الحظوظ : $(F_s, F_w, F_c) > 0$

بإحلال المعادلة (6) في المعادلة (1) نتحصل على القانون السلوكي الحاكم لأفعال المسلم العادي :

$Q_0 = F [S_0 (R_0,H_0), W_0 (R_0,H_0) , C_0 (R_0, H_0), R_0,H_0]$ (12) دالة جملة المصالح

بإحلال المعادلة (4) في المعادلة (2) نتحصل على القانون السلوكي الحاكم لسلوك المسلم الراشد (خيار الدار الآخرة).

$I_0 = F [S_0 (\bar{R_0}), W_0 (\bar{R_0}) , C_0 (R_0) , R_0]$ (13) دالة المصلحة التوحيدية

بإحلال المعادلة (5) في المعادلة (3) نتحصل على القانون السلوكي الحاكم للدنيوي العقلاني " **خيار الحياة الدنيا** " ، وتلخصه دالة المنفعة " **اللذة** " الشهيرة في العلوم الاجتماعية الغربية :

$U_0 = F [S_0 (H_0), W_0 (H_0), C_0 (H_0), H_0]$ (14) دالة المصلحة الدنيوية

الدوال الثلاث (12) ، (13) ، (14) تمثل أصول النظرية المعرفية القرآنية لدراسة الظاهرة الاجتماعية ، حيث تلخص القوانين الكلية الحاكمة لهذه الظاهرة كما نرى.

نلاحظ أن الدالة (12) تعبر عن حال المؤمن العادي الذي تتدافع في نفسه (S) قوى الهوى (H) والعلم ($\bar{R}$) ، ومن ثم تدور أفعاله (Q) بين فاسد وصالح. والنفس التي تتعاقب عليها قوى الهوى " **دوافع الفجور** " والعلم " **دوافع التقوى** " تسمى في القرآن " **النفس اللوامة** ".

الدالة (13) تعبر عن حال المؤمن الراشد الذي تزكت نفسه (S) عن الهوى وخضعت لسلطان العلم التوحيدي ($\bar{R}$) لذلك أصبح هواه وفق ما جاء به الشرع فكانت كل أفعاله راشدة. النفس التي تزكت عن قيم ودوافع الفجور واستمسكت بالعلم التوحيدي تسمى في القرآن " **النفس المطمئنة** ".

الدالة (14) تعبر عن حال الدنيوي " **العلماني** " الذي أقصى الإله الواحد من مجال الفعل والتأثير الزمني ، وآثر الحياة الدنيا (U) ، واتخذ إلهه هواه (H) ، وقال لأوتين مالاً (W) وولداً (C). والنفس التي أسلمت قيادها للهـوى تسمى في القرآن " **النفس الفاجرة** ".

كيف يتولد علم الظاهرة الاجتماعية في النظام المعرفي القرآني

إن جاز لنا أن نعتبر ما مضى نظاماً معرفياً قرآنياً يختص بكليات الظاهرة الاجتماعية فإنه يبرز لنا الحقائق الآتية :

أولا : الهيمنة المطلقة للعلم التوحيدي ($\bar{R}$) على الدالة التوحيدية في المعادلة (13) المعبرة عن مقاصد المنعم " **الله** " من خلق النعمة " **المال ، البنون** " ، والمنعم عليهم " **البشر** ". وسوف يعبر العلم التوحيدي عن نفسه في هذه الدالة من خلال قيم التقوى التي سوف تكيف تفاعل النفس مع بقية المتغيرات ومن ثم تحدد صياغة الدالة.

ثانياً : الهيمنة المطلقة للجهل أو الهوى (H) على الدالة الدنيوية في المعادلة (14) المعبرة عموماً عن مقاصد المنعم عليهم من النعمة. وسوف يعبر الهوى عن نفسه من خلال قيم الفجور " **البخل ، الطمع ، الأثرة ، الخ** " التي سوف تكيف تفاعل النفس مع بقية المتغيرات ومن ثم تحدد صياغة الدالة.

ثالثاً : أن هناك مفارقة واضحة بين مقاصد الشارع تعالى ممثلة في دالة متاع الإيمان (I) ومقاصد الناس ممثلة في الدالة الدنيوية (U) ، وهذه المفارقة هي أساس الابتلاء في خطة الخلق العامة ، ومن أجل علاجها وضعت الشريعة ، أي حتى يخرج المكلف عن داعية هواه فيكون عبداً لله اختيارا كما هو عبده اضطراراً.

رابعاً : أن العلاقة بين الإيمان (I) في المعادلة (13) وبين المتغيرات الحاكمة للظاهرة الاجتماعية في المجتمع المسلم الراشد (S, W, C, R) هي علاقة ناتج ومدخلات. لذلك لا معنى للحديث عن حفظ الدين مقابل حفظ النفس والنسل والعقل والمال ، إذ بات واضحاً أن الدين ما هو ألا جماع التفاعل بين جميع هذه المتغيرات ، ولكن يمكن الحديث عن حفظ الإيمان (I) على مستوى الاعتقاد. كما أرى أن الأصوب بدل الحديث عن حفظ العقل كمقصد أن يكون الحديث عن حفظ العلم التوحيدي كمقصد لأن به يكون حفظ الدين من خلال تحقيق الدالة التوحيدية على صعيد الواقع.بالطبع يكون حفظ آلة تحصيل العلم التوحيدي وهى " **العقل** " من باب ما لا يتم الواجب ألا به فهو واجب.

خامسا : لقد توصل علماء المقاصد مثل الإمام الشاطبي إلي أن المتغيرات الخمسة " **مع إبدال العلم بالعقل** " في الدالة التوحيدية هي الكليات التي وضع الشارع الشريعة بقصد حفظها ، وأن هذا الحفظ على المستوى الضروري والحاجى والتحسينى ينبغي أن يكون أساس استنباط الأحكام الفقهية. ولكن لما كان همهم هو الأحكام الفقهية ، ولما قامت منهجيتهم على الاستقراء للأحكام الفقهية الجزئية المتولدة أصلاً عن قصد الشارع حفظ هذه الكليات الخمس لم يكن من الممكن أن ينتبهوا إلي العلاقة الأعم القائمة على التفاعل الديناميكي بين متغيرات " **النفس ، المال، البنون** " المولدة للظاهرة الاجتماعية بتجلياتها المختلفة عبر التاريخ والجغرافيا والمرتكزة على التدافع بين المقاصد الدنيوية (U) والتوحيدية (I) من خلال تدافع الهوى (H) والعلم التوحيدي ($\overline{R}$). لذلك تعاملوا مع هذه المتغيرات كل على حدة ، وفى إطار إستاتيكي كأن لا رابط بينها ، ولهم كل العذر في ذلك.

سادساً : بينما تدور علوم الفقه والمقاصد الشرعية حول تحقيق مقاصد الشارع ممثلة في الدالة التوحيدية (I_0) فإن العلوم الاجتماعية المعاصرة مهتمة بدراسة مقاصد المكلفين والأفعال التي يقومون بها لتحقيق تلك المقاصد وما ينجم عن التدافع الاجتماعي المحقق لتلك الأهداف من ظواهر اجتماعية يبحث عن أسبابها في تلك المقاصد والأفعال. لذلك فان العلوم الاجتماعية العلمانية تنطلق فرضياتها من الدالة الدنيوية (U_0) ، بينما ينبغي أن تبنى فرضيات العلوم الاجتماعية الإسلامية على الدالتين التوحيدية والدنيوية لأنهما معاً يشكلان القاعدة المقاصدية للمسلم العادي ، وهو الذي يكسبها صفة العالمية من حيث قدرتها على تفسير الظاهرة الاجتماعية أين ومتى وجدت. وتبدو هذه الحقيقة واضحة من الدالة (Q_0) التي تمثل الحالة العامة لأهل التوحيد ، مقاصد وأفعال ، حيث غلبة النفس اللوامة التي يتدافع فيها العـلم التوحيدي " **قيم التقوى** " مع الهوى " **قيم الفجور** " فتبرز في الواقع الاجتماعي المسلم الظواهر الاجتماعية المتناقضة. لذلك نجد أن الدالة العامة هذه تتطابق مع الدالة التوحيدية عندما ينتفي أثر الهوى ، وتتطابق مع الدالة الدنيوية عندما ينتفي أثر العلم التوحيدي ، وهكذا يكون حال المجتمع والفرد المسلم متأرجحاً بين أحوال التوحيد والشرك.

سابعاً : لا يثبت النظام المعرفي القرآني أعـلاه أي دور مباشر للعلم بظاهر الحياة الدنيا " **العلم الكوني** " في الدالة الدنيوية كما أثبته للعلم التوحيدي في دالة الإيمان. السبب في ذلك ، كما نرى ، أن العلم الكوني ليس المولد المباشر للملذات الدنيوية التي تعبر عنها الدالة الدنيوية ، وإنما دوره غير مباشر من خلال التمكين من إيجاد السلع " **المال ، البنون** " التي تمد الإنسان بمتاع الحياة الدنيا. أما العلم التوحيدي فهو المسئول ابتداءً عن إيجاد أصل الإيمان كاعتقاد نفسي ، ثم هو من بعد ذلك مسئول أيضاً عن تكييف التفاعل بين المتغيرات الأخرى المنتجة للعمل الصالح والذي بدوره يغذى الإيمان.

ثامنا : أعتقد أنه من الممكن أن يمثل النظام المعرفي القرآني أعلاه القلب الصلب " Hard Core " لبرنامج بحث علمي لجميع العلوم الشرعية والاجتماعية ، إذ جميعها تنطلق من ذات المتغيرات الكلية ممثلة في الدالة العامة (12) ، ثم من بعد ذلك لكلٍ وجهة هو موليها.

تاسعاً : سوف تذهب إلي غير رجعة القطيعة المعرفية بين التخصصات العلمية في مجال الظاهرة الاجتماعية حيث يبرز النظام المعرفي القرآني أعلاه تأثيراً متبادلاً قوياً للمتغيرات الفاعلة في الظاهرة الاجتماعية. وهذه المتغيرات تعتبر المدخل إلي العلوم الاجتماعية الضرورية التي يلزم إنشاؤها لدراسة الظاهرة الاجتماعية.

ما هي إذاً العلوم التوحيدية التي يعبر عنها متغير العلم (R) وما هي مصادرها وبأي منهجية وكيف تتطور؟

لا شك أن أول ما يتبادر إلي الذهن هو ما يمكن تسميته " **علم العلم** " الذي يدرس ماهية العلم ($\overline{R}$) ومصادره ومناهجه ومقاصده. ثم ماذا بعد ذلك ؟ فلننظر إلي الدالتين التوحيدية والدنيوية اللتين تلخصان خطة الخلق العامة ولنتأمل بإيجاز وإجمال أنواع العلوم المطلوبة لتتحقق بالإنسان حكمة الخالق من الخلق. إذا نظرنا إلي الدالة التوحيدية نجد أن إيجاد أصل الإيمان بالله تعالى (I) يقتضي نشأة علوم التوحيد التي تقوم بالاستدلال من الخلق على وجود الخالق تعالى : { **سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** } [فصلت : 53]. وهى في الجملة علوم المنطق والعلوم الكونية ، ولها مداخلها في القرآن الكريم. وينبغي تأسيس تلك العلوم على هذه المداخل حتى تؤدى وظيفتها المطلوبة كأدلة إيمان " **آيات الأنفس والآفاق** ". ويدخل في إطار علوم التوحيد تلك المتعلقة بدراسة القرآن الكريم كظاهرة معجزة تدل على أن مصدره هو بديع السموات والأرض : { **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** } [النساء : 82].

ثم إذا نظرنا إلي زينة الحياة الدنيا " **المال ، البنون** " كنعم كلفنا بالانتفاع وعمران الأرض بها وتأدية شكرها ، لزم من ذلك علوم كونية تمكن من معرفة خصائص تلك النعم التي بها ذللت للإنسان وسخرت بما يمكن من الانتفاع بها وتحقيق الحكمة من خلقها. هذه العلوم الكونية الوظيفية أيضاً لها مداخلها في القرآن وينبغي تأسيسها على تلك المداخل. فإذا جئنا إلي المنعم عليه " **الإنسان** " فهناك نوعان من العلوم يتعلقان به ، أولها العلوم التي تتعلق بدراسته ككائن حي " **نفساً وجسداً** " لمعرفة خصائصه النفسية والحيوية والفيزيائية التي تمكن من تحديد العلاقة المنفعية المثلى بينه وبين زينة الحياة الدنيا بما يحفظ عليه حياته ويحفظ التوازن الكلى للبيئة. لقد أنبت الله تعالى في الأرض من كل شيء موزون ولكن الإنسان هو الذي يقيم هذا الوزن بالقسط أو يخسره : { **والسماء رفعها ووضع الميزان ! ألا تطغوا في الميزان ! وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** } [الرحمن : 7 - 9].

ثم هناك العلوم المتعلقة بالإنسان ككائن مكلف في إطار مجتمعي ، وهى علوم بعضها يتعلق بدراسة المقاصد التي يريد الخالق من الإنسان تحقيقها والأحكام الشرعية التي عليه الالتزام بها ليتمكن من تحقيق تلك المقاصد وهى عموماً العلوم التي تحكم ميزان التفاعل بين المتغيرات الثلاثة " **النفس ، المال ، البنون** " والإطار المجتمعي المتولد عن هذا التفاعل ، ومنها علوم العبادات ، العادات ، المعاملات ، والجنايات بما يحقق شكر النعمة : { **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** } [الحديد : 25]. وبعض هذه العلوم يتعلق بتزكية النفس وتربيتها في إطار فهمنا لقيم التقوى والفجور وتفاعلها مع الابتلاء المركوز في زينة الحياة الدنيا.

ولكن تفاعل المجتمع بمقتضى المقاصد والأحكام الشرعية ومحاولة المكلفين توفيق أوضاعهم لتصبح مقاصدهم وأفعالهم وفق ما جاء به الشرع تؤدى بعد حين إلي ظهور أنماط من السلوك والعادات الراشدة المنتظمة (Regularities) تنجم عنها بالضرورة ظواهر اجتماعية تكون أحد الأسباب الداعية إلي نشأة علوم اجتماعية إسلامية تهتم بدراسة تلك الظواهر. ورغم أن هذه الأنماط السلوكية المنتظمة لا تمثل سنن ثابتة في حد ذاتها (Laws) إلا أنها بانتظامها هذا تمثل العامل الحاسم في تحقيق سنن الله الاجتماعية مثل : سنن الشكر ، سنن الكفر ، سنن التداول ، سنن التغيير ... الخ.

إذا نظرنا إلي الدالة الدنيوية فسوف نتبين أمرين هامين فيها ، أولهما أنها دالة قوية الحضور والتأثير في مقاصد وسلوك المكلف المسلم ومن ثم في المجتمع المسلم ، وذلك بمقتضى الفطرة الإلهية. بل إن الواقع التاريخي والحاضر للمسلمين يقول إن تأثير هذه الدالة أكبر بكثير في حياتنا الفردية والمجتمعية من الدالة التوحيدية. الأمر الثاني هو أن هناك مجتمعات دنيوية " **علمانية** " ، هي غالب المجتمعات البشرية عبر التاريخ ، تنشأ على معطيات هذه الدالة وتكون ذات تأثير وتأثر بالواقع الاجتماعي الذي تحققه الدالة التوحيدية. لذلك لا بد أن تبنى علومنا الاجتماعية الإسلامية ليس فقط على قواعد الدالة التوحيدية بل أيضاً على قواعد الدالة الدنيوية إن أردنا الإحاطة العلمية بالظاهرة الاجتماعية عبر الزمان والمكان ، أى إن أردنا صفة العالمية لعلومنا الاجتماعية. وسوف تكون جميع هذه العلوم علوم توحيدية لأنها تنطلق من النظام المعرفي القرآني بغرض

التمكين للدالة التوحيدية في الواقع حفظاً للكليات الخمس. وبالأحرى أن تكون القواعد التي تؤسس عليها هذه العلوم متجذرة في الوحي الكريم.

ما اصطلحنا على تسميته في هذا البحث بالنظام المعرفي القرآني المتعلق بالظاهرة الاجتماعية يؤكد أن مبتدأ العلم التوحيدي لهذه الظاهرة لا بد أن يكون الوحي الكريم ، ذلك أن المبدأ الكلى الأساس الذي تقوم عليه الدالة التوحيدية ألا وهو تعظيم الإيمان بتعظيم العمل الصالح المحقق للشكر في زينة الحياة الدنيا والذي يضرب بجذوره في عالمي الغيب والشهادة ما كان له أن ينشأ من المجال الكوني والعقلي وحدهما. وقد يقول قائل إن المبدأ الكلى الثاني الذي تقوم عليه الدالة الدنيوية التي هي أصل من أصول النظام المعرفي المذكور ، وهو تعظيم متاع الحياة الدنيا ، قد أمكن اكتشافه من خلال النظر في المجال الكوني وحده. ولكن نؤكد أن هذا المبدأ الذي تقوم عليه العلوم الاجتماعية الغربية هناك من الشواهد التي تفنده بقدر تلك التي تؤيده مما يضعف مركزه كمبدأ تقوم عليه العلوم الاجتماعية الغربية. ولكن هذا المبدأ يأخذ قيمته العلمية عندما يكون منشأه الوحي الذي هو علم يقيني من الله تعالى. ولن يلعب هذا المبدأ دوره الحقيقي في بناء العلم الاجتماعي إلا في إطار المنظومة المعرفية القرآنية المبينة لعلاقته بالمبدأ الأول في إطار خطة الخلق العامة.

إن مصدرية الوحي الأولية للعلم التوحيدي ($\overline{R}$) هي التي جعلت هذا المتغير مستقلاً(Independent) في الدالة التوحيدية في الفترة الأولى الأساس المعبر عنها الصفر (0) في كل المتغيرات. ولكن ما هو دور المجال الكوني الذي تقع فيه الظاهرة الاجتماعية في بناء العلم التوحيدي ؟ وما هي المنهجية التي تؤدى إلي تكامله مع الوحي وكيف يتحقق بذلك نمو العلم التوحيدي ؟

لكي نجيب على ذلك دعونا نأخذ فترتين من الزمان للواقع المجتمعي ، الفترة الأولى الأساس ونرمز لها بالرقم (0) والفترة التي تليها ونرمز لها بالرقم (1). في الفترة الأساس للتحليل يكون المجتمع الذي يرغب في تحقيق مقاصد الشارع يعانى من أمراض اجتماعية عدة وبدرجات متفاوتة. يبدأ العلماء المسلمون في تشخيص أدواء المجتمع من خلال دراسة وتحليل الأعراض التي تبدو لهم ممثلة في الظواهر الاجتماعية المختلفة. أصول العلم الذي يعتمدون عليه في الدراسة سوف تأتى من النظام المعرفي القرآني الذي حدد القوانين الكلية الحاكمة للظاهرة الاجتماعية ممثلة في مبدأ التعظيم لكلِ من الدالتين التوحيدية والدنيوية ، بحيث يمكن بناء نماذج ترتكز على تلك الكليات لدراسة ظواهر جزئية ، في مجال الاقتصاد مثلاً. ولا شك أن الدراسة سوف تعتمد على كليات الظاهرة الاجتماعية هذه وفرضيات تؤسس على معلومات تجمع عن الظاهرة الجزئية المراد دراستها.

وتكتمل مرحلة التشخيص باختبار تلك الفرضيات بوسائل الاختبار العلمية المختلفة مما يمكن من وضوح الرؤية في طبيعة الأمراض الاجتماعية وكيفية معالجتها. يتبع هذا استنباط الأحكام الفقهية والسياسات الشرعية المؤسسة على الدالة التوحيدية التي تكون علاجاً يناسب ما حدد من أمراض اجتماعية. يقوم بذلك ذات المجمع العلمي الذي شخص الأمراض المجتمعية. وعندما يقوم التنفيذيون بإنزال تلك الوصفات العلاجية فإن المجتمع في قطاعاته المختلفة سوف يتفاعل مع العلاج بدرجات متفاوتة ومختلفة بحيث تتشكل عند نهاية الفترة الأساس (0) ظاهرة اجتماعية جديدة ، تظهر فيها أعراض العافية بدرجات مختلفة ، وكذلك أعراض أمراض جديدة وبقايا أمراض قديمة تشكل في مجملها أساساً لاختبار مدى صحة علومنا الاجتماعية التي استخدمنا في التشخيص ومدى سلامة وملاءمة أحكامنا الفقهية وسياساتنا الشرعية التي طبقناها في الفترة الأولى. وهكذا فإن تقييمنا لاجتهادنا في الفترة الأولى سوف يجعلنا نتنقل بين فهمنا للنصوص وفهمنا للواقع وإعادة النظر في مناهج استنباطنا واستقرائنا حتى يتمخض عن ذلك حصيلتنا من الفقه والعلم الإسلامي الاجتماعي في الفترة الأولى. وسوف ندخل في الفترة الثانية مزودين بحصيلتنا من هذا العلم لنعيد الكرة من جديد في تكامل منهجي بين العلوم الاجتماعية المعيارية والوصفية والأحكام الفقهية والسياسات الشرعية القيمية. فعلومنا الاجتماعية المعيارية والوصفية سوف تبنى فرضياتها على الدالتين التوحيدية والدنيوية لتصل إلي العلل والأسباب التي أدت إلي المفارقة بين مقاصد الشارع ومقاصد المكلفين ودرجة الفجوة

بين التجليات الاجتماعية لهذين المقصدين. أما أحكامنا الفقهية وسياساتنا الشرعية فسوف تؤسس على الدالة التوحيدية فقط ، لأنها وحدها تعبر عن مقاصد الشارع ، بغرض ردم الفجوة بين ما هو مطلوب وبين ما تحقق. وعند نهاية الفترة الثانية وبداية الفترة الثالثة تكون حصيلتنا من العلم الإسلامي الاجتماعي التجريبي قد ازدادت ، وهكذا يتطور ويتراكم العلم الاجتماعي الإسلامي وأحكامه الفقهية وسياساته الشرعية في جدلية ديناميكية بين الوحي والواقع ، تعبر عن ربط الإسلام بين العلم التوحيدي والعمل بحيث يثرى كل واحد منهما الآخر.

أسئلة وأجوبة:

الطريقة التي اتبعت في هذا البحث للإجابة على بعض الأسئلة المطروحة عن النظام المعرفي في الإسلام هي : " **البيان بالعمل** " ، وذلك من خلال تقديم تصور لنظام معرفي قرآني يتعلق بالظاهرة الاجتماعية والذي من خلاله تتكيف رؤية العالم المسلم الغائية للظاهرة الطبيعية أيضاً. لذلك فسوف نختار بعض الأسئلة المطروحة ونبين بإيجاز كيف يجيب عليها الإطار النظري الذي سبق.

السؤال الأول : هل في الإسلام نظام معرفي خاص به مغاير لأنظمة معرفية خاصة بالثقافات والحضارات الأخرى ؟ وإذا كان الأمر كذلك فأين نجد تفاصيل هذا النظام ؟

الإجابة على هذا السؤال هي نعم ، وأن تفاصيل هذا النظام المعرفي الإسلامي نجدها في الوحي الكريم " **قرآن ، سنة** " ، وقد أشرنا فيما سبق إلي أهم معالم هذا النظام المعرفي ونجمل في الجدول الذي يلي الفرق بين النظام المعرفي التوحيدي الإسلامي وذلك الدنيوي الغربي " **الوضعية** ".

أرجو أن أنبه إلي أن مطابقتنا بين النظام المعرفي العلماني الغربي وذلك الدنيوي المتولد عن خيار " **الحياة الدنيا** " في نظرية الظاهرة الاجتماعية في القرآن الكريم إنما مرده إلي دعوانا التي تقول بإحاطة القرآن الكريم ومعادلته معرفيا للظاهرة الاجتماعية. لذلك فإن الدنيوية " **العلمانية** " وأنظمتها المعرفية في تجلياتها التاريخية المختلفة ما هي إلا تقريب (Approximation) للدنيوية التي وردت في القرآن الكريم ونظامها المعرفي ، بحيث يقترب أو يبتعد النموذج التاريخي من الأصل القرآني بمقدار تحكم الهوى والعلم الكوني في الأول. ونرى أن النظام المعرفي الدنيوي الغربي المعاصر هو أنضج نموذج تاريخي وأقربه للأصل القرآني.

تنطبق ذات المقولة أعلاه على خيار " **الدار الآخرة** " ونظامه المعرفي التوحيدي مع التسليم بأن النموذج المعرفي الإسلامي هو الأنضج تاريخياً والأقرب إلي الأصل القرآني لأنه مستمد منه ، باعتبار تصديق القرآن وهيمنته على أصول المعرفة التوحيدية السابقة له.

مقارنة بين النظام المعرفي الإسلامي والنظام المعرفي العلماني

نوع النظام المعرفي مكونات النظام المعرفي	التوحيدي الإسلامي	الدنيوي الغربي (الوضعية)
المصدر	الله الوحي الكون	الكون
المحتوى	علم الخبر عن عالم الغيب علم الخبر والمختبر عن عالم الشهادة : أ - آيات الأنفس والآفاق ب - أحكام شرعية ج - أحكام عادية (سنن طبيعية ، سنن اجتماعية ، قيم)	علم المختبر عن عالم الشهادة : أ - سنن طبيعية ب - سنن اجتماعية
المنهجية	جدلية الوحي والكون عن طريق وسائل السمع والبصر والفؤاد	قراءة الكون عن طريق وسائل السمع والبصر (الوسائل الحسية)
مكتسب العلم	توحيدي	دنيوي
المقاصد	تعظيم الدالة التوحيدية (دالة متاع الإيمان)	تعظيم الدالة الدنيوية (دالة متاع الحياة الدنيا)

السؤال الثاني : إذا كانت المعرفة الإنسانية عبر العصور قد تم الحصول عليها من مصدري الوحي والكون ، وتظهر بشكل متداخل يصعب ملاحظة فواصل دقيقة بينها ، فما مسوغ القول بوجود نظام معرفي ينتسب إلي الوحي ؟ وهل يجوز أن نطلق على الوحي اسم النظام المعرفي ؟ وإذا كانت المعرفة التي مصدرها الوحي تأتى إلي الإنسان من خارجه ، فهل يصح أن ينسبها إلي نفسه ؟ وما علاقتها بالمعرفة التي يتدخل الإنسان في توليدها ؟.

تقرر في صدر هذا السؤال أن المعرفة الإنسانية عبر العصور قد تم الحصول عليها من مصدري الوحي والكون ، وتظهر بشكل متداخل يصعب ملاحظة فواصل دقيقة بينها. ونحن بدورنا نرتب على هذه الجملة التقريرية السؤال الآتي : إذا كان الأمر كذلك فلماذا كان غالب البشرية عبر العصور على غير دين التوحيد ؟ وكان العمل مبنى على الكفر لا الشكر حتى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس كما يؤكد ذلك القرآن الكريم في الآيات التاليات : { **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة اللذين من قبل ، كان أكثرهم مشركين** } [الروم : 42] ، { **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس** } [الروم : 41] ، { **وقليل من عبادي الشكور** } [سبأ : 13] ، { **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** } [يوسف : 38].

كذلك فإن القرآن الكريم يبين لنا أن أكثر الناس لا يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، وأن أكثرهم لا يعلمون ، وأن أكثر الناس للحق كارهون ، وكل هذه قضايا معرفية في الصميم. فكيف نوفق بين ما قرره صدر السؤال وأثبته للتجربة البشرية التاريخية وبين نفى القرآن لذلك ؟.

سوف نحاول أن نتبين أصل الإشكال بالرجوع إلي إطارنا النظري الذي جمع بين الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية ونظامها المعرفي. الإطار النظري يشير إلي أن الظاهرة الاجتماعية عبر العصور ظلت تنبني على نظامين معرفيين مختلفين ظلا يؤسسان للمعرفة البشرية بطريقة مستقلة ثم تتم عملية دمج انتقائية لبعض مكونات أحدهما في الثاني في فترات من التاريخ مما يؤدى إلي الانطباع بتمازج النموذجين المعرفيين ، بينما الحقيقة أن أياً منهما لم يفقد شخصيته المستقلة. وهذان النظامان المعرفيان هما النظام الإسلامي التوحيدي القائم على جدلية الوحي والكون والنظام الدنيوي القائم على آحادية الكون مصدراً ومقصداً. ولا شك أن العلم الكلى الذي ينتج عن جدلية الوحي والكون وما يترتب عليه من عمل يختلف تماماً عن ذلك الذي يثمره النموذج المعرفي الدنيوي. ولكن لأن بين النظامين وشيجة ، كما يبين الجدول المقارن ، تتمثل في مصدرية الكون ووسائل السمع والبصر وعلم السنن الكونية المترتب عن ذلك ، يبدو الأمر وكأن هناك تداخلاً بين النموذجين. وهذه الوشيجة هي التي سهلت تاريخياً دمج المنطق والفلسفة اليونانية ، وليدا النموذج المعرفي الدنيوي ، في النموذج المعرفي الإسلامي ، الذي ورثه وساد بعده أمداً طويلاً.. وذات الشيء يقال عندما دمج المنهج التجريبي الإسلامي في النموذج المعرفي الوضعي الغربي في القرون الأوربية الوسطى.

ولكن لا أعتقد أننا نستطيع أن نرتب النتيجة التي بدأ بها السؤال وهى تمازج النظامين المعرفيين بناء على هذا التقاطع التاريخي عند تلك الوشيجة المعرفية. إذن هناك نظام معرفي قرآني شامل يحيط بالظاهرة الاجتماعية ويتكون من نظامين معرفيين جزئيين هما النظام المعرفي الإسلامي التوحيدي والنظام المعرفي الدنيوي، ولا تخرج الأنظمة المعرفية البشرية عن هذين الأصلين أبداً. والنظام المعرفي الإسلامي يستوعب ويتجاوز النظام المعرفي الدنيوي كما هو واضح من الجدول المقارن للنظامين ، لذلك نقول بلغة الرياضيات إن النظام المعرفي الأخير هو حالة خاصة للأول بحيث يتطابقا عندما نسقط مبدأ التوحيد في النظام المعرفي الإسلامي.

ولكن هل يجوز أن نطلق على الوحي اسم النظام المعرفي ؟ أعتقد ، والله أعلم ، أن الصحيح هو أن الوحي علم شامل ومعادل للظاهرة الاجتماعية في كل تجلياتها ، في المبتدأ والمنتهى الغيبي وما بينهما. لذلك ربما جاز أن نقول إنه كما أن للظاهرة الاجتماعية نظام كوني أساس تولدت عنه وانتظمت حوله وإليه ترد جزئياتها " **التفاعل بين النفس والمال والبنين بمقتضى العلم أو الجهل** " كذلك فإن للقرآن نظام معرفي أساس معادل لذلك النظام الكوني انتظمت حوله آياته وإليه يرد فهم معانيها وتجلياتها المعرفية.

إذا كانت المعرفة التي مصدرها الوحي تأتى إلي الإنسان من خارجه فهل يصح أن ينسبها إلي نفسه؟ وما علاقتها بالمعرفة التي يتدخل الإنسان في توليدها ؟

المعرفة ، في شقها المتعلق بإنتاج العلم واكتسابه ، جميعها تأتى أصولها إلي الإنسان من خارجه ، سواء كانت علماً من كتاب الله المسطور أو كتابه المنظور ، أو علماً قذفه الله في فؤاد عباده الصالحين بواسطة ملائكته كالرؤيا الصالحة والإلهام. فليس هناك علم ينتج من داخل الإنسان وحده لأن القرآن يقول : { **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** } [النحل: 78]. فالسمع وسيلة علم الخبر والبصر وسيلة علم المختبر والفؤاد يعقل آيات الله في علمي الخبر والمختبر ويتهيأ بذلك للمزيد من العلم عن الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى : { **واتقوا الله ويعلمكم الله** } [البقرة : 282]. والعلم المتوخى من كتاب الله المسطور أو المنظور يتدخل الإنسان في توليده متأثراً في ذلك بتحيزاته المنهجية واللغوية ورؤيته الكونية. لذلك فالمعرفة البشرية ، علماً وعملاً ، هي كسب بشرى تنسب إلي كاسبها لأن الحق الذي فيها نسبى وظني ، بينما الحق الذي في الوحي والكون مطلق ويقيني. ولا ينفى ذلك أن ما يصيبه الإنسان من علم باجتهاده في فهم المصدرين هو من عند الله ، تماماً كأي عمل للإنسان { **والله خلقكم وما تعملون** } [الصافات : 96].

السؤال الثالث : ما طبيعة النظام المعرفي؟ هل هو نظام عام يتفرع عنه أنظمة خاصة أخرى؟ (ما هي) ؟ أم هو نظام خاص يتفرع عن نظام عام اشمل منه ؟ (وما هو) ؟

لقد بينا فيما سبق ماذا نقصد بالنظام المعرفي فليرجع إليه في موضعه، ولكن الذي لا شك فيه أن النظام المعرفي القرآني الذي أوضحنا هو نظام عام يتفرع عنه ابتداء نظامان معرفيان هما النظام المعرفي الإسلامي التوحيدي والنظام المعرفي الدنيوي ، وعن هذه الأخيرة تتفرع العلوم المتخصصة.

المراجع

المراجع العربية :

(1) إبراهيم أحمد عمر (1992م) : العلم والإيمان ، ط 2 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي " **واشنطن** ".

(2) التجاني عبد القادر حامد (1997م) : دراسة في المفهوم القرآني والمتغير السياسي. إسلامية المعرفة (س 3 ، ع 10) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (ماليزيا).

(3) عرفان عبد الحميد (1997) : " **المنهج العلمي ومقاربته في القرآن الكريم** " ، التجديد (س 1 ، ع 1) ، الجامعة الإسلامية العالمية (ماليزيا).

(4) محمود عايد الرشدان (1997م) : حول النظام المعرفي في القرآن الكريم. إسلامية المعرفة (س 3 ، ع 10) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (ماليزيا)

(5) محمد أبو القاسم حاج حمد (1992م) : منهجية القرآن المعرفية ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (طبعة محدودة التداول) ، واشنطن.

(6) محمد الحسن بريمة (1999م) : رؤية قرآنية للظاهرة الاجتماعية وتجلياتها الإقتصادية ، المركز العالمي لأبحاث الإيمان ، الخرطوم ، السودان

(7) مصطفى عشوي (1997م) : نحو تكامل العلوم الاجتماعية والعلوم الشرعية (س1 ، ع2) ، الجامعة الإسلامية العالمية (ماليزيا).

المراجع الإنجليزية :

(1) King ". Journal of " A Quranic Model for a Universal Economic Theory : Biraima, M. (1991)
.Islamic Economics, vol.3 : A/ Aziz University

(2) "From Rationality to Righteousness: Towards a Universal Theory of Biraima, M., (1999):
. Humanomics, vol. 15, No.4, Barmarick Pub., Hull, , England. Action"

(3) Criticism and the Growth of Knowledge. Cambridge : Lakatos, E., & Musgrave, A., (1987)
Univ. Press, Cambridge.

(4) Methodology for the Human Sciences. State Univ. of New York : Polkinghorne, D. (1983)
Press, USA